الميثولوجيا .. مركب المعرفة
دان براون نموذجاً

د.محمد حبش

كاتب وناقد ومفكر سوري
مقيم في دولة الإمارات العربية

habash2005@gmail.com

الميثولوجيا .. مركب المعرفة
دان براون نموذجاً

د.محمد حبش

كاتب وناقد ومفكر سوري -مقيم في دولة الإمارات العربية

يتناوب الأدب والفلسفة التأثير مشتركين أو منفصلين، وتقوم علاقة تخادم حقيقية بين الأدب والفلسفة، فلا معنى للأدب بدون عمق فلسفي، ولن تصل الفلسفة إلى جمهورها إلا على مركب الأدب، والفلسفة بدون أدب تنتهي إلى تحجر عقلي مريع، يتحنط في الأحبار والأوراق، والأدب بدون فلسفة يتحول إلى محض غناء هابط، لا يستعذب إلا مع فساد الأذواق وخمود الأشواق.

وقد يكون أوضح أفق لتخادم الفلسفة والأدب ما تقرؤه في النصوص المقدسة التي دخلت الى الضمير الإنساني، وفي القرآن الكريم مثلاً فإنه على الرغم من غاياته الحقوقية والتشريعية إلا أنه ظل يعالج قضاياه على مركب القصة والرواية، نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين[1].

والقرآن الكريم طافح بأدب الغموض واللغز كما نشاهده في قصة آدم وإبليس وقصص الجن وقصة ذي القرنين التي كانت تأتي على غير نسق المعقول من الأشياء، حتى قيل للأنبياء أنفسهم فيها: إنك لن تستطيع معي صبراً. ورغم قفز الروايات فوق منطق الأشياء والعوائد ولكنها استطاعت بالفعل أن تقدم رسالتها للجمهور عبر مقاربات لا تخطئها العين ولا يقلق لها القلب.

لم يكتب الأنبياء فلسفة عميقة معقدة، ولم يستخدموا تلك المصطلحات الصارمة، وإنما بشروا برسالاتهم عبر أساليب القصة والرواية، ويمكن القول بأنهم عزفوا على أوتار صحيحة حشدت من حولهم آمال الناس، وأطربت أرواحهم، ولامست قلوبهم. واليوم وفي غمرة الألف الجديد من عصر التكنولوجيا والاتصالات والفضاء، فإنه وبكل المقاييس لا توجد أدنى مقارنة بين أثر الأنبياء وأثر الفلاسفة، إذ تطبع كتب الأنبياء؛ من التوراة

(١) سورة يوسف ٣

والإنجيل والقرآن آلافاً مضاعفة من أي أدب آخر،ولا تقارنبأي نوع من كتب الفلسفة أو الحكمة. وهذا هو واقع الحال في حاضر البشرية كما هو الحال في ماضيها.

ومن العجز أن نقول إن أدب اللغز أو أدب الغموض كان من طبيعة العصور الوسطى وأن العصر الحديث أزاح الأدب اللغزي أو الميثولوجي أو أنهى تأثيره في الحياة. وفي الواقع فإن أكثر الكتب مبيعاً خلال هذا القرن بدون منازع كانت روايات خيالية لغزية قدمتها الكاتبة البريطانية جي رولينغ[2] عبر شخصية هاري بوتر التي طبعت عشرات الملايين من النسخ في أنحاء العالم، وتحولت إلى أفلام رهيبة، ونقلت كاتبتها إلى نادي الأثرياء لتكون أول قلم في التاريخ يمنح صاحبه مليار دولار.

والأمثلة كثيرة على تخادم الأدب والفلسفة.ففي الأدب العربي يمكن الإشارة إلى حي بن يقظان[3] لابن طفيل، وفاضل بن ناطق لابن النفيس[4]، وألف ليلة وليلة[5]، وهي روايات حملت مضامين فلسفية عميقة على مركب الأدب، وشاركت بقوة في رسم الثقافة الشعبية قيماً وملامح وأساطير.

وستقتصر دراستي في هذا المقال على ظاهرة دان براون....

دان براون واحد من الذين يتربعون اليوم على عرش الكتاب الأكثر مبيعاً في العالم، وهو لقب لا تمنحه جامعة أو مؤسسة وإنما يفرضه حضور الكاتب وقدراته وموهبته وإبداعه.

---

(٢) جوان رولينغ موراي كاتبة بريطانية معاصرة مواليد ١٩٦٥، صنفت عام ٢٠١١حسب مجلة ليدينغ اديتورز كأكثر النساء في بريطانيا نأثيراً، اشتهرت بروايات هاري بوتر الخيالية، وقد أصدرتها في ستة أجزاء وتحولت لأكثر الكتب مبيعاً هذا القرن

(٣) حي بن يقظان رواية عربية شهيرة كتبها الفيلسوف الاندلسي ابن طفيل ت ١١٨٥ م ونسبها إلى كتاب ابن سينا في الحكمة المشرقية، وبنى القصة على منطق فتى الأدغال الذي يصل بتأمله المحض في جزيرة الواقواق إلى كل عقائد الإيمان، وقد كتبت القصة مرات متعددة لتخدم فلسفات أخرى ومن أشهرها فيلم فتى الأدغال ماوكلي الذي أخرجه فوميو كوروكاوا، وكذلك رواية دانيال ديفو المسماة روبنسون كروزو.

(٤) فاضل بن ناطق رواية كتبها الطبيب الدمشقي ابن النفيس ت ١٢٨٨م عارض فيه كتاب حي بن يقظان وطنخ طرسه لاكتشاف كعارف الطب، واستخدم فيه الميثولوجيا لنشر المعرفة

(٥) ألف ليلة وليلة سلسلة روايات شهيرة في الأدب العربي تم جمع تراث الحضارات الشرقية في الاطار الأدبي ولا يعرف لها كاتب معين، واشتهرت منها حكايا علاء الدين والمصباح السحري والسندباد وعلي بابا والاربعين حرامي، وقد ترجمت إلى الأدب الانكليزي عام ١٧٠٦م وتشير دراسات تراثية إلى أن الحكايات تعود إلى الأصل الفارسي المسمى هزار أفسان.. الألف خرافة

قفز الأمريكي دان براون المولود عام 1964 إلى قمة الشهرة العالمية كاتباً روائياً عند ظهور روايته الشهيرة شيفرة دافنتشي التي حققت بدءا من عام 2003 نسبة مبيعات تجاوزت 70 مليون نسخة، وقد ترجمت إلى 50 لغة عالمية وتحولت إلى فيلم شهير، يحشد النخب الثقافية في عواصم العالم مدرجات السينما لمتابعته وتحليله.

وتجري أحداث الرواية في متحف اللوفر في فرنسا، حين يستدعى على عجل الدكتور روبرت لانغدون أستاذ علم الرموز الدينية في جامعة هارفارد، في أعقاب جريمة قتل في متحف اللوفر لأحد القيمين على أسرار المتحف في ظروف غامضة. وحين يدخل لانغدون في التحقيقات بين اللوحات الصامتة في اللوفر تتكشف أمامه شيفرة مذهلة لشبكات سرية طويلة الأمد، تحيط نفسها بالقداسة وتتحكم بكثير من الأسرار، وتؤسس للون من الماسونية، بطقوسها وأسرارها مغرقة في القدم، سينضوي فيها أبرز المشاهير الذين اعتنى اللوفر بذكراهم وخلدهم في أعمالهم ومنجزاتهم، وأبرزهم هنا هو العالم الفيزيائي الشهير نيوتن[6] والمخترع الإيطالي ليوناردو دافنشي[7].

واستطاع دان براون أن يرسم ملامح رهيبة من الحفز والإثارة لدى كشف هذه الأسرار وارتباطها بالرموز التاريخية الكبيرة، وعبر حسناء فرنسية تدعى صوفي توفو،وهي خبيرة في فك الشيفرات المقدسة، يرسم لك داون براون حواجبها الآسرة وابتسامتها الموناليزية الغامضة وملامحها الطافحة بالأسرار الخبيئة التي تكمل رهبة اكتشاف عالم الأسرار المذهل، تقول لك ما لا تريدك أن تفهمه، وتجبرك أن تقرأ في ذؤاباتها المبعثرة ونظراتها المتحولة الى اللامكان بقية الحكاية الطافحة بالأسرار.ويشكل دان براون ببراعة وإثارة ملامح الذهول على شفتي القارئ، ويضرب بقوة في خياله الغارب مشهد قيام الحضارات وسقوطها، تاركاً القارئ يصرخ في حيرة وذهول: هل ما رآه من عجائب ينتمي إلى عالم الخيال أم عالم الواقع. وبلغة أخرى، ينقلك جون براون من عالم الواقع المحبط إلى عالم الجمال المثير، في أيقونة معرفية يمتزج فيها الخيال بالمنتج العلمي والفني الذي قدمته عباقرة عصر التنوير، عبرسلسلة متتابعة من الأسرار والذهولالتي تعصف بملامح الحكاية من أول حرف إلى آخرحرف فيها.

وقد أثار الكتاب حفيظة الفاتيكان عندما رسم سيرة المسيح في تلافيف كتابه بروح

---

(٦) أسحق نيوتن، عالم الفيوياء البريطاني ١٦٤٢-١٧٢٧م أشهر علماء الفيزياء، أعتبرت دراساته وبحوثه توطئة لعصر العلم الحديث وخاصة في الجاذبية وقوانين الحركة

(٧) ليوناردو دافنشي ١٤٥٢-١٥١٥م أبرز علماء عصر النهضة الإيطالي ومحترعيه، كما عرف أيضاً بإبداعاته الفنية الهائلة التي خلدها على كنيسة القديس بطرس

مختلفة، لا تشبه في شيء ما يقدم في موعظة القداس، من مشهد الصلب ودلالاته، والخطيئة والفداء التي بنيت على أساسها تفاصيل عقيدة معقدة، حكمت أوربا ألف عام ولا تزال تعيش في قداسة المطلق خارج النقاش والبرهان. ولكن دان براون يطل على قرائه بالحكاية من زاوية أخرى، تتحدث عن يسوع الإنسان، زاوية تشبه ما كتبه الشرقاوي[8] في كتابه محمد رسول الحرية،وفيها يبدو يسوع الإله الهارب مع مريم المجدلية في أعنف قصص الغرام الساحرة، تاركاً وراءه الصليب والفداء ترسمه خيالات الكهنة الخشبية على لوح من التراتيل الجافة، ليغدو يسوع في النهاية مع مريم المجدلية حكاية حب حمراء تتعالى على قيود الشريعة الصارمة.فلم تعد مريم المجدلية[9] عنده شاهد الكنيسة على قيامة المسيح من بين الأموات، بل بدت هنا شريكه في الحب والسحر، لا تشغلهما صخب المحاكمات اللاهوتية القميئة عن التوق إلى العالم الجميل، ليعيش لحظاته بتمرد الإنسان وجنونه وليس بخضوعه وقيوده. وتخط في صفحة الحياة في النهاية روح الإنسان حين يقرر أن يضيف إلى كفاحه مجد الآلهة من أفق أفروديت وفينوس إلى روح المغامرة والتمرد على القانون الكئيب.

حين يشاهدهم يسوع يرسمون صليبه وأشواك العذاب بعد الجلجلة يضحك ساخراً مع حبيبته من كآبة الإنسان حين يفتقر إلى الذكاء والمغامرة. ويستأنف حبه وتواثبه، حيث تخط المشاعر الملتهبة سطورها في صفحة السماء الزرقاء بعيداً عن عصا الكهانة والاكليروس، حيث لا معنى في عواطف الحب المتدفقة لتراتيل الصلب والفداء والأشواك التي تقتضيها ضرورة الكهنوت.

ولكن غضب الفاتيكان من الرواية وتصريحه المستمر بمخالفتها لرسالة الكتاب المقدس قدم خدمة مجانية لدان براون، فقد ازدادت شهرة الكتاب ازدياداً عظيماً،لتصبح روايته أحد كتب التجديف التي يطاردها الكهنة. وحظيبراون بتعاطف الفولتيريين[10]

(٨) عبد الرحمن الشرقاوي ١٩٢٠-١٩٨٧م أديب وكاتب مصري، اشتهر بدراساته الفلسفية وصدر له كتاب محمد رسول الحرية الذي قدم جياة النبي الكريم على هيئة رواية بطل يتوق للحرية ويقود كفاحاً إنسانياً ضد الاستبداد.

(٩) مريم المجدلية من تلامذة السيد المسيح ومن أقرب الناس اليه شفاها بمسحة من يده، فكانت تلازمه دوماً وهي الشاهد على قيامته من بين الأموات وفق العقيدة المسيحية، ويميل معظم الباحثين أنها وصفت دوماً في الانجيل بأوصاف ثلاثة وهي المرأة الخاطئة ومريم أخت مرثا ومريم المجدلية، فيما يرى آخرون أنهن ثلاث نساء.

(١٠) أتباع فولتير وهو فرانسوا ماري أرويه الملقب فولتير، ١٦٩٤-١٧٧٨م أشهر فلاسفة فرنسا الذين كرسوا كتاباتهم للاصلاح الاحتماعي والسياسة كان دائم النقد ليساسات الكنيسة الكاثوليكية واعتبرت أفكاره تمهيداً للثورة الفرنسية.

في فرنساواللوثريين[11] في ألمانيا والطاغوريين[12] في الهند والإقباليين[13] في باكستان ورومي[14] في العرب والفرس. وعلى سبيل التأكيد على ذلك اندفع دان براون بحماس إلى روايته التالية التي كانت أدق تصويبا بعنوان ملائكة وشياطين؛ وفيها يعيد بطله الأول روبرت لانغدون بطل شيفرة دافنشني نفسه لينقب هذه المرة في الهيكل الكاثوليكي نفسه في حاضرة الفاتيكان، عن أسرار جديدة ونتائج مذهلة للماسون الخفي المتحكم في كواليس الفاتيكان، ويسطر ببراعة مخيفة مشهد مقتل الكرادلة الأربعة المرشحين لمنصب الحبر الأعظم. وحين يشرح بريشته الصاخبة مشهد التآمر الإكليروسي على المناصب العليا ويفاجئك دان براون بأن أشد مظاهر التآمر يكمن دوما في الحلقة الأخيرة التي كانت تصور نفسهاأكثر المحطات نزاهة وإخلاصاً، ولكنها تظهر فجأة وقد تصدرت في مشهد سريالي مشهد المؤامرة من شعبها الأربع، وتجبر القارئ على فتح فمه وجحوظ عينيه وهو يتابع صدمة الدخول إلى كهف التآمر الرئيسي الذي لم يكن في النهاية إلا الكهف نفسه الموصوف بالقداسة والنبالة والطهر ومكافحة المؤامرات، في مشهد يذكرك بإلقاء القبض بالصوت والصورة على أبرز عباقرة الدولة الأمريكيين في مكافحة المخدرات وهو يقوم مباشرة باستلام المبالغ المالية المذهلة من تجار المخدرات لتأمين ترويجها في أمريكا.

ويقف بك براون مباشرة أمام أدق فصول الصراع بين العلم والدين، وفي شرحه لهذا الصراعلا يقف بك على منصة منتصر، بل يرسم مشهد العلم والدين منهكين تماما من الصراع المرير، فيما يمنح وسام النصر في هذه الملحمة اللعينة لمنصة الغموض والأسرار والشيفرات المذهلة.

---

(١١) أتباع مارتن لوثر ١٤٨٣-١٥٤٦م لاهوتي ألماني مؤسس حركة الاصلاح الديني التيانتهت بولادة المذهب البروتستانتي الذي يسود اليوم في ألمانيا والولايات المتحدة ويتبعه نحو ٤٠٠ مليون مسيحي في العالم

(١٢) طاغور حكيم الهند وشاعرها ١٨٦١-١٩٤٦م اشتهر برسالته الإنسانية العابرة للاديان والثقافات ، حاز جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩١٣ وهو أول شرقي يحظى بالجائزة

(١٣) محمد إقبال ١٨٧٧-١٩٣٨ شاعر الإسلام، ولد في سيالكوت بالبنجاب وانخرط في النضال مع محمد علي جناح لبناء دولة باكستان، ترجمت قصاءده الى اللغات العالمية ويعتبر أحد أبرز فلاسفة القرن العشرين/ من شغرع: جناح جبريل، صرب الكليم، شكوى وجواب شكوى

(١٤) جلال الدين الرومي ١٢٠٧-١٢٧٣م شاعر الاخاء الانساني، ومؤسس مدرسة العرفان الصوفي، بشر بدين للإنسانية يتجاوز المذاهب والطوائف والأعراق، له ديوان المثنوي الذي اشتهر في العالم الإسلامي حتى صار يسمى قرآن العحم، ولا زال قبره في قونية يشهد كل عام مهرجان الأديان الذي يشارك فيه رجال الأديان من مختلف أنحاء العالم عند قبره.

وفي كتبه التالية الجحيم والرمز المفقود والحصن الرقمي وحقيقة الخديعة، يبدو دان براون مزهواً بانتصار رهانه على كل الرهانات، حيث تتكفئ براهين العقل وموسيقا الدين إلى زوايا غير مثيرة في المشهد الكوني، فيما يقوم عالم الأسرار والشيفرات الملعونة والأتلانتس المخزون بالأسرار على كرسي الرواية،بالتحكم بكل تفاصيل المشهد. ومع أنه لا يذكر شيئاً من الأرقام ولكنه يدفعك لمقارنة سوق الكتاب اللاهوتي مع سوق رواياته الأسطورية التي يقدمها، وحجم المبيعات والحضور في السوق العالمي، وانتصار الخيال الحر على الخيال اللاهوتي، ومع أنه يمارس موقف الإشادة المباشرة بالعقل والنقل جميعاً،ولكنه لا يمنح أياً منهما مشهد الصدارة في منصة الحقيقة الكونية، بل يقوم بحماس وزهو برسم الحقيقة الكاملة عبر طوفان متدفق من الأسرار الخبيئة التي لا يملك مفتاحها إلا دان براون.

في لقائه بالشارقة على هامش معرض الكتاب الأخير مع جمهور كبير متدفق من عشاق الكلمة والفكرة تحدث دان براون مطولاً عن العقل والروح، وتمكن من أسر الجمهور في عالمه الخاص، حيث عاش طفولته كلها في خط التماس بين الروحي والعقلي، حيث كان أبوه أستاذ الرياضيات الصارم يرسم الطبيعة بالأرقام،ويعبر عن الموسيقا والأحاسيس بالديجتال، فيما كانت أمه الطيبة تقرأ العالم من أفق التراتيل المقدسة في الكنيسة. وكان براون بارعاً في رسم هذا العالم المزدوج في تفاصيل مثيرة، حتى في لون سيارة أمه الحمراء وسيارة أبيه السوداء، مشيراً أن أباه قد اختار عنوان متريك على سيارته في إشارة الى حساب الأشياء بالمتر الصارم، فيما تخيرت والدته كلمة كيري وهي الرب باليونانية. وكان يقول لقد عشت هذا الانقسام الصارخ في فهم الحياة،وتمكن من رسم عالم السماء نفسه بريشة أمه وأرقام أبيه. وطبعت هذه الثنائية توجهه من البداية، وتذكر بمرارة جواب كاهن الحي حين ساله ببراءة: هل من سبيل لفك التناقض بين العلم والدين، وكان جواب الكاهنأنت فتى جميل، فلا تسأل هذا مرة أخرى!!

ولكن دان براون اهتدى أخيراً إلى الشيفرة التي فك بها هذا التناقض، وذلك بإدخال المشروعين إلى عالمه الخاص المليء بالرموز والإلغازات والإيحاءات. وهناك كسر الأيقونات جميعا وأتاح لنفسه رسم أجمل ما في اللوحتين ليصل مع القارئ إلى روائع الدين والحكمة جميعاً.

وفي حواره عن العلم والدين، بدا براون كشاعر عابث يقرأ من كتاب ابن رشد[15] فصل

(١٥) ابن رشد ١١٢٦-١١٩٨م فيلسوف الأندلس وفقيهها، اشتهر أولاً بغزارة علمه في الفقه المقارن، عبر كتابه بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ولكنه تحول فيما بعد إلى الفلسفة، وخاض حوارات عميقة في التنوير، وعرف في أوروبا بصاحب المدرسة الرشدية وأول فقهاء العلمانية في الإسلام، وكرس فكره

المقال في بيان ما بين الشريعة والحكمة من اتصال. وتحدث برهبة عن الكفاح الضروري للانتقال من عالم الشك والارتياب الذي كان يطبع علاقة الدين بالعلم، كمنبرين متلاعنين ليس بينهما أدنى وفاق.ورسم بدقة السيناريو البارع للتحولات التي طرأت على الإنسان وكيف بدأ يدرك تلقائياً أن الجدولين يقدمان الحقيقة ويجلبان الري من منبع واحد، وأن الكؤوس ذاتها يتبادلها النوادل في مركز سيرن العلماني الصارم،وعلى قداس الفاتيكان. وهي ذاتها التي يشربونها في الصوربون،وفي كنيسة القديس بطرس،وأن الصراع الذي نشأ بين الدين والعلم كان نتاج اختلاف اللغة والتجربة الثقافية بين مختلف الحضارات. وكان بارعاً، وصفه لرهبان البوذية بقمصهم البرتقالية ورؤوسهم الحليقة وهم يعودون إلى قاعات الجامعة لتعلم الفيزياء، التي لم تعد أبداً عدواً للإشراقات النيرفانية[16] بل أصبحت مظهر تعبير رقمي للإشراقات التي قدمها من قبل غوتاماما سيدهارتا بوذا[17].

ومع أنه ليس مطلوباً من الروائي أن يقدم موقفاً فلسفيا مباشراً وخاصة إذا كان من رواة الإلغاز، حيث يكون الجواب عن اللغز باللغز وعن الأسطورة بالأسطورة وعن الموناليزا بالشيفرة، لكن دان براون أتاح فرصة نادرة لمتابعيه أن يتحدث بلغة واضحة مفهومة عن رسالته في الوصول إلى عالم من المساواة والحرية والعدالة، وأن الأديان لا ينبغي أن تكرر أخطاءها في الحروب الصليبية والصراعات بين الجيزوليت والهيجونوت.

يقول براون إن المشترك أكثر مما تعتقد، وإن الغرب المادي يحتاج إلى الشرق الروحاني المجلل بالأسرار، وأننا نعيش عصراً مثيراً من التواصل، يسمح لنا بالقول بأن أصل الأديان واحد، وأن رسالتها واحدة، ولكنه في الوقت نفسه يعود ليقول: لو سألتني عن عدد الأديان في العالم، فسأقول لك إن العالم يحتوي على ستة مليارات ديانة!!

إنها إذن في مقاصدها ورسالتها واحدة، ولكنها متنوعة إلى الغاية في استجابتها لحاجات الإنسان وميوله.

للجمع بين الدين والفلسفة، وله كتاب فصل المقال في بيان ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، وعلى الرغم من احتضان السلطان الموحدي أو يعقوب يوسف لابن رشد ولكنه عجز عن حمايته من غضب الفقهاء الذين اتهموه بالردة وأحرقوا كتبه فنفاه إلى مراكش ومات بها.

(١٦) التيرفانا .. وفق العقيدة البوذية فهي ساعات النعيم الروحي التي يبلغها المتأمل، وهي تشبه الفردوس في العقيدة الإسلامية، حيث يتسامى الإنسان عن رغائب الحسد ليهنأ بالنعيم الروحي.

(١٧) غوتاما سيدهارتا بوذا ٥٦٣ق.م -٥٨٣ ق.م حكيم هندي كبير، واجه الأساطير الهندوكية الداعية إلى تعذيب الجسد للوصول إلى النعيم، ودعا إلى دين عقلاني يبلغ فيه المرء السعادة عن طريق التأمل وخدمة الناس، تنتشر الديانة البوذية في العالم، وبشكل خاص في الهند والصين ويقدر أتباع الديانة بنحو مليار إنسان.

وفي حواره في الشارقة، خرج براون من عالم اللغز الذي تمتاز به معالجاته إلى قراءة بالغة الوضوح، أكد فيها على وجوب مواجهة القطيعة بين الدين والعلم، وأن علينا أن نبني بين الأديان علاقة ديمقراطية واقعية، تعزز الروحانية والإخاء الإنساني، وتؤسس لديكقراطية دينية واقعية: دين بين الأديان وليس ديناً فوق الأديان، ونبي بين الأنبياء وليس نبياً فوق الأنبياء، وأمة بين الأمم وليس أمة فوق الأمم.